العراق

في عهد المغول الإيلخانيين

٦٥٦ - ٧٣٦هـ — ١٢٥٨ - ١٣٣٥م

الفتح . الإدارة . الأحوال الاقتصادية . الأحوال الاجتماعية

تأليف

الدكتور جعفر حسين خصباك

الأستاذ في كلية الآداب والمحاضر في معهد الدراسات الإسلامية العليا

في جامعة بغداد

ساعدت جامعة بغداد على طبعه

الطبعة الأولى ـ كانون الثاني ١٩٦٨

مطبعة العاني ـ بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تقدم صفحات هذا الكتاب محاولة لدراسة تاريخ العراق فى ظل الحكم الايلخاني المغولي بين ١٢٥٨ و ١٣٣٥م ولا تعني بدراسة شيء من احوال المغول أنفسهم الا بما يتصل بهذا الغرض وحده • وقد وجد المؤلف نفسه مضطرا على العودة الى الوراء بين حين وآخر بتفصيل او اقتضاب لتصفح احوال العراق فى العهد الاخير من الدولة العباسية خصوصا ابتداء من اول حكم الناصر لدين‌الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ) او حتى من القرن الرابع الهجرى ولاقى صعوبات جمة فى استجلاء هذه الفترة لشدة غموضها وعدم كفاية الاخبار التى وصلتنا عنها بالرغم من كثرة المراجع التى تطرقت اليها • ولابد من أجل الاحاطة بها وتفهمها تفهما عميقا من البحث بين المخطوطات المعروفة والمجهولة المتوفرة فى ايران والعراق وسورية وتركيا ومصر وأوروبا وهذا مما لم يتح للمؤلف تحقيقه •

يتألف هذا الكتاب من أربعة أبواب رئيسة تمثل بالتتالى محاولات لدراسة ظروف الفتح المغولى للعراق وعملياته العسكرية والنظم الادارية التى قامت فى ظله وأحوال البلاد العامة من النواحى الاقتصادية والاجتماعية فى عهده • وقد حاولت فى جمع هذه الابواب فى كتاب واحد تقديم صورة متكاملة لتاريخ العراق فى العهد الايلخانى لما اعتقده من تفاعل بين الجوانب العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية فليس التاريخ وصفا بسيطا

للماضى بترتيب حوادثه ترتيبا زمنيا بل محاولة لاستقصاء الجذور والاسباب واستيعاب الاحوال والتعمق فى الامور وتقديم احكام وتفسيرات توضحها وتزيل اللبس والغموض عنها • وقد أرجأت الكتابة عن المظاهر الفكرية لحاجتها على ما اعتقد ـ الى دراسة خاصة بها •

ان اية دراسة لنهاية الدولة العباسية تستلزم البحث عن اسباب ضعفها وانحطاطها وهو امر يعود بجذوره الى اواخر العصر العباسى الاول ويخرج عن طبيعة هذا الكتاب أما محاولة التعرف على الاسباب المباشرة لسقوط تلك الدولة فأنه موضوع خصص اكثر الباب الاول لتوضيحه وتحليله وفى رأينا ان القاء اللوم كله على الخليفة الاخير او وزيره انما هو نتيجة لنظرة سطحية للامور وتجاهل لطبيعة الخطر الذى كان كامنا فى احوال البلاد الداخلية والظروف الدولية المحيطة بها •

وقد كثر الكلام عن التخريبات الواسعة التي أحدثها الغزو المغولي للعراق ولسنا بمجال الدفاع عن اولئك الغزاة البرابرة او النيل منهم ولكن دراستنا للنصوص التى وصلتنا عن المراجع المعاصرة والمطلعة انتهت بنا الى نتيجة تخالف نوعما ما هو شائع فالمغول لم يخربوا نظام الرى فى العراق وتخريبهم للمدن كان محدودا فى مناطق معينة أهمها بغداد والموصل اما القتل الذى اوقعوه فى بغداد فقد كان ذريعا • ولكن هولاكو لم يجر على سنة جده جنكيزخان بتخريب اكثر او كل المدن التى تقع فى طريق زحفه وقتل سكانها ويبدو لنا ان الصورة التى رسمها المؤرخون لفاتح بغداد المغولى انما هى انعكاس للاعمال التى قام بها جده فى ما وراء النهر وخراسان[1] • وقد بدأ المغول غزوهم للعالم الاسلامى فى ٦١٦هـ ولم يستولوا على العراق الا بعد أربعين سنة من ذلك نشأ خلالها جيل جديد انهالت عليه الثروة من

---

(١) انظر تفاصيل غزوات المغول لما وراء النهر وايران ايام جنكيزخان فى : ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ (مطبعة الاستقامة) ، ج٩ ، ص٣٢٩ ـ ٣٤٣ •

كل جانب واحتك بالمدنيات القديمة فى الصين واواسط آسيا وايران ولذلك فانه كان أخف من آبائهفى معاملته للسكان المفتوحين وقد عهد هولاكو أمر تنظيم العراق وادارته بعد الفتح ، الى مسلمين يعرفون شؤونه ويعطفون على أهله فعملوا على اعادة تعميره ونشر الاستقرار فيه وقد وصف عطا ملك الجويني الذي حكم العراق أكثر من اثنين وعشرين سنة بأن أيامه كانت كأيام الخلفاء وسيرته من أحسن السير وأعدلها بالرعية[٢] . وبالغ كاتب آخر فقال : (كانت بغداد ايام الصاحب علاءالدين أجود مما كانت عليه ايام الخليفة)[٣] .

كثرت المراجع القديمة المعاصرة وغير المعاصرة التى تناولت بالشرح عمليات غزو المغول للعراق ونشاطهم العسكرى الى نهاية الدولة الايلخانية ولذلك فان الصورة التى وصلتنا عن هذا الامر تكاد تكون واضحة الى حد كبير أما فيما يتعلق بادارة البلاد وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية فأن مهمة الباحث فيها أصعب وأشق لقلة الاخبار عنها وتفرقها بين صفحات وسطور مراجع عديدة وقد اضطررنا فى كثير من المواضيع الى العودة الى الفترة السابقة ودراستها دراسة جيدة للاستفادة منها فى القاء ضوء مفيد على الفترة الايلخانية يضاف الى ذلك اننا اخترنا جوانب معينة فقط من الاحوال الاقتصادية والاجتماعية نعتقد انها تمثل أهم ما فى الموضوع مثل نظام الرى والضرائب والعملة والصناعة والتجارة والاثر العنصرى الذى تركه الفاتحون فى البلاد وتوزيع القبائل العربية وأثرها فى تاريخ الفترة وتوزيع المسيحيين واليهود من السكان وعلاقتهم بالحكام ودراسة احوال البلاد الصحية ونوعية الغذاء الشائع بين السكان ودراسة مؤسسات معينة كالجامع والمدرسة والرباط باعتبارها منظمات اجتماعية لها وظائف خاصة تقوم بها فى المجتمع العراقى

---

(٢) الشيخ قطب‌الدين اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج٤ ، ص٢٢٤ـ٢٢٥ .

(٣) محمد بن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات (تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد) ج٢ ، ص٧٥ـ٧٦ .

واخيرا اختتمنا الكتاب بمحاولة لمعرفة الطبقات الاجتماعية وما أصابها من تغير نتيجة للاحتلال المغولى •

ان الكثير من تنظيمات العراق الادارية والاقتصادية واحواله الاجتماعية فى ظل الايلخانيين لم تخضع لتغييرات مفاجئة او عميقة بل ان الاستمرارية ظلت واضحة فيها فكأن البلاد فقدت الخليفة العباسى ووزراءه وعددا من وظائفه ولكنها احتفظت بالكثير من نظمهم ووظائفهم الادارية وصارت جزء من امبراطورية عظيمة يرأسها الخاقان المغولى فى قره‌قورم ثم الايلخان او السلطان فى مدينتى تبريز او السلطانية • وفى هذا أمر لم يسبق له مثيل في تاريخ العراق لانه لم يخضع في أية فترة من تاريخه لحاكم قاعدته منغوليا او أواسط آسيا • ولكن الانفصال التدريجى للدولة الايلخانية (وكان العراق وايران أهم مقاطعاتها) عن الامبراطورية المغولية خصوصا فى عهد اولاد هولاكو وأحفاده ، جعل هذه الدولة تعتمد على نفسها من حيث مصادرها فى الرجال والمال واضطرها على التكيف لظروفها المحيطة بها فأخذت تذوب فى المدنية الفارسية الاسلامية وقد كان وزراء هولاكو ، مؤسس الدولة ، ومستشاروه المقربون فى الشؤون الادارية والمالية يغلب عليهم الطابع الفارسى الاسلامى منذ البداية مثل شمس‌الدين الجوينى ونصير الدين الطوسى • والحقيقة اننا لم نستطع اكتشاف أى اثر عنصري او ثقافى عميق تركه المغول فى حياة العراقيين ، بل ان التأثيرات الفارسية التى لم تختف بينهم خلال الحكم العباسى والتى اشتدت ايام السلجوقيين عادت الى الظهور فى الفترة الايلخانية وصار الحكم مغوليا فارسيا فى اول الامر ثم صار وكأنه فارسي في أواخر الدولة الايلخانية وأخذت شخصية البلاد الثقافية الناتجة من تراثها الغنى العميق تعود الى الظهور من جديد كما ظهر بنو العباس وصارت لهم نقابة خاصة بهم •

ان المراجع التى استخدمها المؤلف فى هذا الكتاب عديدة ومتنوعة بينها كتب تاريخ عامة وكتب طبقات وسير وتواريخ اشخاص ومدن وكتب سياحية وجغرافية • وكل ما نستطيع القيام به فى هذه المقدمة هو الاشارة الى عدد

مختار منها فقط لكثرتها وتنوعها ومع ان المنهج العلمي وهو الذي تمسك به المؤلف ، يتطلب دراسة جميع الروايات التى تمثل وجهة نظر جميع الاطراف التى كان لها مشاركة او تأثير فى مجرى الامور فان ضياع جانب كبير من مراجع البحث القديمة وعدم توفر بعضها بالنسبة للمؤلف حال دون تحقيق أمنية غالية طالما راودته هي دراسة النصوص التي تعكس وجهة نظر المغول انفسهم • وكل ما حصلنا عليه في هذا الشأن نصوص قليلة العدد كتبها صينيون معاصرون كان لهم اتصال مهم بالمغول وردت في مجموعة الوثائق والاخبار التى جمعها الدكتور بريشنايدر

E. Bretschneider, Medieval Resreaches from Eastern Asiatic Sources.

وخير ما فيها انطباعات صينيين معاصرين عن عدد من المدن الاسلامية خصوصا الايرانية وشيء من النصوص المفيدة عن حادثة حصار بغداد وفتحها •

ان المراجع الاسلامية تنقسم الى عربية وفارسية واكثر ما ورد فيها وصف للحملات العسكرية قبل فتح بغداد وبعدها واخبار عن شخصيات الفترة العسكرية والسياسية والاجتماعية والفكرية وأهم من تطرق الى هذه الجوانب هو : كتاب الكامل في التاريخ لعزالدين بن الاثير (ت ، ٦٣٠هـ) الذي يصل بحوادثه الى سنة ٦٢٨هـ وكان معاصرا للغزو المغولي وشديد الاتصال بأخبار العراق وقد استقى اخباره عن المغول من تجار ومسافرين بينهم شهود عيان وكان نفسه فى الموصل حينما اقترب المغول منها وقد امتدح معرفته بأخبار الغزو المغولى معاصر له كان اكثر منه اتصالا بأحداث اجتياح المغول لايران هو محمد بن أحمد النسوي (ت ، ٦٣٩هـ) بكتابه سيرة السلطان جلال‌الدين منكوبرتي وقد عمل هذا كاتبا للانشاء للسلطان المذكور ورسولا له لدى عدد من حكام المسلمين وكان مستشاره وموضع ثقته فى كثير من أمور الدولة • ومن المراجع الفارسية القديمة يعدّ كتاب عطا ملك الجويني (ت ، ٦٨١هـ) المسمى (جهانگشاي) أي فاتح العالم ، ذو أهمية كبيرة فيما يتعلق بالاحداث الاولى

من اتخاذ مانغوخان قراره بفتح البلاد الغربية ومنها العراق الى فتح بلاد الاسماعيلية كما أنه يحتوي على نصوص واوصاف مفيدة عن حياة المغول في تركستان وقد تجول المؤلف فيها ووصل الى حدود الصين ورافق هولاكو في حملته على العراق • ويعد كتاب عبدالله بن فضل‌الله الشيرازي (تجزية الأمصار وتزجية الاعصار) ، ويكثر صاحبه من استخدام لغة فارسية متكلفة مليئة بالمحسنات البديعة والامثال العربية ، مفيد فيما يتعلق بتاريخ العراق فى هذه الفترة • اما كتاب رشيدالدين فضل الله الهمذانى (ت ، ٧١٨هـ) المسمى (جامع التواريخ) فهو من خيرة ما اخرجه العهد الايلخانى من المؤلفات التاريخية وهو مثل لما حدث من تطور سياسى وفكرى سببه سيطرة المغول على امبراطورية عالمية تضم اجناسا وثقافات واديانا متعددة كالمغولية والتركية والعربية والروسية وغيرها وهو ، أى جامع التواريخ ، محاولة لتأليف كتاب عن تاريخ العالم ونسخه المتداولة بيننا الآن بالفارسية وأهم ما فيه بالنسبة لبحثنا تفصيلات مؤلفه عن فتوحات هولاكو وحياة غازان واصلاحاته الادارية والمالية وقد وضع الكتاب فى الاصل بناء على أوامر السلطان غازان ولذلك وضعت تحت تصرف مؤلفه كل المعلومات التى كان يريد الحصول عليها وقد اتصل بعدد من امراء المغول وحكامهم وحكمائهم والعارفين منهم بالاضافة الى استخدامه للعديد من المصادر الاسلامية • وقد أكمل حافظ أبرو (ت ، ٨٣٤هـ) هذا الكتاب بذيل وضعه له بدأه من حيث انتهى رشيد الدين وقص تاريخ السلطانين المتأخرين من الدولة الايلخانية اولجايتو محمد خدابنده وأبي سعيد • ولكن المهم ان هذا الكتاب وغيره من المؤلفات الفارسية القديمة تؤكد على تاريخ ايران وتفصل فيه ولا يأتي تاريخ العراق فيها الا عرضا باستثناء الاحداث العسكرية والسياسية المهمة • أما النصوص المفيدة فى تاريخ العراق الاقتصادى والاجتماعى فأنها قليلة فيها على الاغلب •

ومن المراجع العربية المفيدة فى موضوع الغزوات المغولية ما ورد فى كتاب ياقوت الحموى (ت ، ٦٢٦هـ) (معجم البلدان) وكان المؤلف فى

نيسابور عندما بدأ المغول اجتياحهم لدولة خوارزم ففر الى جهة الغرب ووصف فى رسالته المنشورة فى كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان ، صورة الرعب والهلع الذي ملأ به الغزاة قلوب السكان • وهناك نصوص مفيدة عن غزوات المغول للعراق السابقة لعام ٦٥٦هـ فى كتاب شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ت، ٦٥٦هـ) الذى تعكس اخباره شعور العراقيين عن تلك الاحداث وتحمل شيئا من الثقة الفارغة القائمة على تفائل لا يبرره الواقع • وفى الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة معلومات مفيدة ومفصلة عن نشاط المغول العسكرى واحوال العراق السياسية بين ٦٢٧هـ و ٧٠٠هـ • ويبدو مما ورد فى الكتاب أنه من تأليف أحد البغاددة المعاصرين الذين نقلوا الكثير عن مؤلفات لم تصلنا ، للمؤرخ العراقى ابن الساعى ، وترد كثير من اخبار هذا الكتاب فى مخطوطة تنسب لابى الحسن علي بن الحسن الخزرجى (ت ، ٨١٢هـ) حتى ان بعض العبارات تتردد نفسها فى الكتابين على ان الثاني منهما أوضح وأصح لانه يخلو من التصحيف ويبدو ان كليهما ينقلان من مصدر واحد هو ابن الساعى • وهناك نصوص مفيدة فى كتابى ابن العبري (ت ، ٦٨٥هـ) تاريخ مختصر الدول وأصله السريانى الذي ترجم الى العربية ايضا • وفى الثانى منهما يطلق المؤلف العنان لنفسه للنيل من الاسلام والمسلمين والتعليق على اخبارهم بما يحلو له ولذلك فهو يعكس رأيه بوضوح اكثر •

هذا أهم ما أردنا بيانه عن مراجع الباب الاول من الكتاب اما الابواب الثلاثة الباقية عن الادارة والاحوال الاقتصادية والاجتماعية فقد كانت مهمتنا فيها أصعب لان المراجع التاريخية القديمة لم تهتم بافراد أبواب خاصة لهذه المواضيع ولم نجد من كتب التاريخ الادارى الاسلامى ما يقدم معلومات مفيدة مباشرة عن الفترة الايلخانية الا كتاب صبح الاعشى للقلقشندى (ت ، ٨٢١هـ) واهم ما فيه نقل او تلخيص لكتاب مؤلف آخر معاصر هو ابن فضل‌الله العمري في كتابه (مسالك الابصار) الذي اعتمد فيه على أخبار رواها له تجار وحكماء سافروا الى البلاد التى كان يحكمها الايلخانيون •

والحقيقة ان الباحث يستطيع العثور على قدر مفيد من النصوص الحضارية مبعثرة في طيات كتب التاريخ العام وتواريخ السير والطبقات والكتب الجغرافية والسياحة ومثل ذلك ان ابن الدبيثي (ت ، ٦٣٧هـ) في كتابه (التاريخ المذيل به على تاريخ ابن السمعانى) ، وابن النجار (ت ، ٦٤٣هـ) فى كتابه ذيل تاريخ بغداد مدينة السلام ، يقدمان معلومات غنية فى غاية الفائدة عن احوال العراق السياسية والادارية والاجتماعية فى أواخر الدولة العباسية • وكذلك مخطوطة (العسجد المسبوك) الى ٦٥٦هـ ، والحوادث الجامعة الى (٧٠٠هـ) وتلخيص مجمع الآداب لابن الفوطي (ت ، ٧٢٣هـ) الذى يؤرخ للفترتين العباسية المتأخرة والايلخانية وكتب الوفيات التي وضعها ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) وابن شاكر الكتبي (ت ، ٧٦٤هـ) وصلاح‌الدين الصفدى (ت ، ٧٦٤هـ) والدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى (ت ، ٨٥٢هـ) وغيرهم •

وتؤلف كتب الجغرافية والرحلات قائمة طويلة تمتد من خلال العهد العباسى الى العهد الجلائرى الذى أعقب الايلخانيين ومع أن بينها ما يجمع النصوص والاخبار من مراجع اخرى سابقة جغرافية او غير جغرافية فأنها يجب ان تؤخذ سوية ليكمل بعضها بعضا حيث تلقي بذلك ضوء مفيدا على احوال العراق من مختلف الوجوه وأهمها ما كتبه ابن رسته (كان حيا فى ٢٩٠هـ) وابن حوقل (٣٦٧هـ) والمقدسى البشارى (ت ، ٣٧٥هـ) وناصر خسرو (٤٣٨هـ) وابن جبير (ت ، ٦١٤هـ) وياقوت الحموي (ت ، ٦٢٦هـ) والمستوفى القزويني (ت ٧٤٠هـ) وأبو الفداء (ت ، ٧٣٢هـ) وابن بطوطة (ت ، ٧٧٩هـ) وماركو بولو (ت ، ١٣٢٤م) • وفيما يتعلق بالفصلين الخاصين بالمسيحيين واليهود لم نستطع العثور على العدد الكافى من المراجع القديمة التى كتبها أفراد من هاتين الطائفتين عدا ما ورد فى اخبار فطاركة كرسي المشرق لماري بن سليمان وعمرو بن متى وما كتبه ابن العبرى فى تاريخه السريانى وبنيامين التطيلى فى رحلته أما ما عدا ذلك فأن النصوص الواردة فى كتب التاريخ الاسلامى عن هذا الموضوع ليست

قليلة ولكنها تعكس وجهة نظر المسلمين ولذلك يجب ان تؤخذ بحذر •

واخيرا اختتم هذه المقدمة بأن اردد لنفسي على الاقل انني بذلت جهدا كبيرا فى الا أكون متحزبا لاية جهة او عقيدة باستثناء الهدف الذى اسعى الى تحقيقه دائما وهو الوصول الى الحقيقة اقتناعا مني ان معرفة الماضي معرفة علمية هى أقوم سبيل لتعرف الانسان على ذاته كما هى وادراك امكاناته وتفهم مشاكله اما المبالغة فى وصف الماضي او الانتقاص منه فأنها مضيعة للوقت تدفع الانسان الحاضر فى سبيل معوج ملتوي لا يوصله الا الى متاهات وضلالات وخير للامة التى تسعى الى غد مشرق ان تعرف ماضيها على حقيقته •

الباب الاول
الاحتلال المغولي للعراق

الفصل الاول

ظروف الغزو المغولي ومقدماته ومسئولية الخلفاء العباسيين عنه

- ١ -

بدأ جنكيز خان غزوه للعالم الاسلامي سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م عندما أخذت جيوشه تجتاح دولة خوارزم التي كانت تضم بلاد ما وراء النهر واكثر أقاليم الأفغان وايران وبعد اربعين سنة من ذلك أي في سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م استولى حفيده هولاكو على بغداد عاصمة العباسيين وقاعدة خليفة المسلمين • وقد كان غزو المغول للعالم الاسلامي جزء من حركة واسعة تستهدف اقامة امبراطورية مغولية عالمية نجحت فعلاً أيام مؤسسها جنكيزخان باحتلال امبراطورية الصين الشمالية واواسط آسيا وايران وجورجيا والقفقاس وروسيا وبولندة واجزاء أخرى من أوروبا الشرقية •

وقد ارتكب المغول خلال غزوهم لأقاليم دولة خوارزم المسلمة فضائع تهلع لها القلوب وتشمئز منها النفوس من تعذيب وقتل لعشرات الألوف من السكان الآمنين دونما تمييز بين الشيوخ والنساء والأطفال ونهب وتخريب كاملين أحياناً لمدن كانت عامرة مزدهرة صارت قاعاً صفصفاً حتى أشار ابن الأثير وهو مؤرخ معاصر الى ذلك وهو يعكس مشاعر أهل زمانه ومخاوفهم بقوله :

« لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها فأنا أقدّم اليه رجلاً وأؤخر أخرى فمن ذا الذي يسهل عليه ان يكتب نعي الأسلام والمسلمين ومن ذا الذي يهون عليه ذكر ذلك فياليت أمّي لم تلدني ويالبتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً الا أنّي

حثني جماعة من الاصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت ان ترك ذلك لا يجدي نفعاً فنقول هذا الفعل يتضمّن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عفت الايام والليالي عن مثلها عمّت الخلائق وخصّت المسلمين فلو قال قائل ان العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً »[1] .

وقد بدأ المغول يهدّدون اطراف العراق سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م وكان مصيره معلّقاً بمصير الأقاليم المحيطة به من الشرق والشمال ولاسيّما دولة خوارزم التي كانت الحصن المنيع الذي يدفع عنه الأخطار القادمة من الشرق لأنالخليفة العباسي لم يكن بأمكاناته العسكرية والسياسيّة المحدودة يستطيع وحده الصمود أمام الأمبراطورية المغوليّة التي كانت وقت سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م تضمّ أغلب بلاد الصين وتركستان وجزء من الهند واكثر ايران وآسيا الصغرى وأكثر روسيا وكانت تملك مصادر هائلة من الرجال والمال والسلاح وكان غزو المغول للعراق جزءً من غزوهم للعالم الأسلامي الشرقي الذي كان وحدة ثقافية لها وزنها العسكري والسياسي والمعنوي لو توحّدت كلمة حكّامها وتألفت قلوب ابنائها ولكن الانحلال كان يسود المنطقة بأجمعها وان من العبث النظر الى أحداث العراق باعتبارها قائمة بذاتها ومنفصلة عمّا يحيط بها .

كانت دولة الخليفة أيام المستعصم بالله العباسي (٦٤٠ - ٦٥٦هـ) (١٢٤٢ - ١٢٥٧م) تشتمل على جزء من العراق الحالي يمتدّ من تكريت الى الفاو ومن حلوان[2] الى عانة ضمّت اليها خوزستان منذ عام ٥٩١هـ/ ١١٩٤م وكانت قليلة النفوس خرب العديد من مدنها وقراهـا ومناطقها

---

(١) عز الدين محمد بن محمد بن عبدالكريم المعروف بابن الاثير ، الكامل في التاريخ (مطبعة الاستقامة بالقاهرة) ج٩ ص٣٢٩ .

(٢) حلوان : قال ياقوت الحموي : (حلوان العراق وهي في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد) ، معجم البلدان (دار بيروت ودار صادر) ج٢ ص٢٩٠ .

الزراعية نتيجة للاضطرابات السياسية التي مرّت بها منذ أواخر العصر العباسي الاول واهمال نظام الري الذي كان الاساس الاول لثروة البلاد وازدهارها ، ولكثرة ما مرّ بها من أوبئة ومجاعات[٣] .

لقد كان خلاص العراق يتوقف على أمرين : أولاً : فقدان الأمبراطورية المغولية قابليتها على الاندفاع والتوسع نتيجة لانقسامها ووقوع الخلاف بين قادتها وحكامها واندلاع نار الحرب فيما بينهم . ثانياً : قيام حلف يضم الجزء الشرقي من العالم الاسلامي أي الدول الواقعة ما بين سيحون والنيل ويستهدف توحيد وحشد القوى العسكرية في المنطقة أمام الخطر المغولي العظيم الذي كان يهدّد الجميع . ولكن لم يظهر ما يحقق أحد هذين الأمرين الى سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م أي بعد سقوط بغداد بحوالي السنتين . فقد ظلّ أباطرة المغول منذ أيام جنكيزخان يحكمون امبراطوريتهم الواسعة ويبحثون عن مناطق جديدة يخضعونها دون ان تقوم في وجوههم ثورة خطيرة أو تنشب بين اتباعهم حرب أهلية الى ان مات الامبراطور مانغوخان عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م أي بعد سقوط بغداد وزوال الخلافة العباسية فيها ووقوع أكثر أجزاء سورية بأيدى الجيوش المغولية الفاتحة حيث نشبت الحرب بين الاخوين قوبلاي وأرقبوقا وطلب الاول منهما مساعدة أخيه هولاكو . وقد أعقب ذلك خلاف حدث بين (بركاي خان بن جوجي) حاكم مغول القبجاق وابن عمه هولاكو أول ملوك الايلخانيين مما أدى الى وقوع سلسلة من المعارك بين الدولتين وتركيز هولاكو قواته في الجهات التي يحمي فيها ممتلكاته من الخطر الجديد ، وعدوله عن خطته في غزو مصر واتخاذه موقف الدفاع أمام دولة المماليك المسلمة التي نجحت في ايقاع الهزيمة بقوات المغول في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م وتوحيد مصر وسورية فى دولة واحدة .

أما اقامة حلف يضم الجزء الشرقي من العالم الاسلامي فقد ظلّ أمراً بعيد التحقيق بسبب الظروف السياسيّة والروحية التي كانت تسود

---

(٣) راجع الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب .

المنطقة . كان توحيد جنكيزخان للمغول قد خلق دولة عظمى لها من المصادر البشرية والمعنوية والقيادية ما أثبت أنه قادر على تحطيم جميع القوى التي وقفت أمام زحفها مما أخلّ في وقت قصير بالتوازن العسكري العالمي ما بين المحيط الهادي واواسط أوروبا في وقت كان فيه العالم الاسلامي الشرقي يمثل فراغاً عسكرياً كبيراً باستثناء دولة خوارزم التي أكمل المغول تحطيمها عام ٦٢٨هـ/١٢٣٠م وكان هذا الجانب من العالم الاسلامي يعج بعدد كبير من دول الطوائف التي نشأت على انقاض الدولتين السلجوقية والأيوبية وكان السيف على قول ابن الأثير وهو مؤرخ معاصر ، قائما بينها وكان حكامها منهمكين بالتآمر ومحاولات التوسع على حساب بعضهم البعض الى حد أعماهم عن الاحساس بخطر المغول الى ان اكتسح هؤلاء دولة خوارزم ووصلت طلائعهم الى الجزيرة واطراف بلاد الشام وكانت غالبية المسلمين في هذا الحين تنقصهم القيم الروحية التي نسميها الآن الأيديولوجية التي تشدّ بعضهم الى بعض وتثير في أنفسهم العزم على امتشاق الحسام للدفاع عن دينهم واوطانهم وأرواحهم . فقد كان الاسلام وهو أهم رابطة تجمع سكان المنطقة وتوحد فيما بينهم ، قد أضحى آنذاك مجرّد ثقافة وأسلوب في الحياة وقد فقد قوته الدافعة القديمة وغلبت على أكثر المسلمين روحيّة الاستسلام للقضاء والقدر ونشطت الصوفيّة الممتزجة بالخرافة فأبعدت الناس عن تفهّم واقعهم المرير وأشغلتهم بخيالات غريبة وأوهام مضلّلة حتى ان العلامة ابن تيميّة (ت ٧٢٨هـ/١٣٢٨م) وهو مراقب ثاقب النظر أشار الى عدد من شيوخ المتصوّفة وقال : (وكثيراً ما كنت أظنّ ان ظهور مثل هؤلاء أكبر أسباب ظهور التتار واندراس شريعة الأسلام)[٤]. وأخيراً كانت هذه الشعوب تفتقد زعيماً كصلاح‌الدين الأيوبي مثلاً يستطيع ان يجمع كلمة المسلمين أو يفرض نفسه على الحكّام الآخرين بالقوّة فيوفر الاستقرار والقوة العسكرية الضرورية والوحدة الأيديولوجيّة .

---

(٤) مجموعة الرسائل والمسائل تأليف شيخ الاسلام ابن تيميّة ، ج١ ص ١٧٩ – ١٨٠ .

وقد كان خلفاء بني العباس المتأخرين وهم قادة المسلمين اسمياً ، لا يتمتعون الا باحترام معنويّ خارج مملكتهم الصغيرة التي لم تكن تقدّم لهم من الأمكانات ما يساعدهم على النهوض بواجب سياسي او عسكري خطير •

كانت أقوى دولة اسلامية في الجهة الشرقية من العراق أيام الغزو المغولي هي دولة خوارزم التي نشأت على انقاض دولة سلاجقة ايران والعراق ونجحت في توحيد بلاد ما وراء النهر وايران توحيدا سطحياً وكانت تمتلك موارد عسكرية ومالية عظيمة ولكنّها كانت تخضع لسيطرة طبقة عسكرية من اتراك ماوراء النهر أثارت كراهية السكان لنهبها أموالهم وتعسفها فيهم وكان سلطانها علاءالدين محمد بن تكش (٥٩٦هـ - ٦١٧هـ) = (١١٩٩ - ١٢١٩م) قد قضى على ملوك ما وراء النهر وخراسان ولم يترك في ايران من الرؤساء من يستطيع الوقوف أمام تيار الغزو المغولي • ولم يكتف بذلك بل طمع بالاستيلاء على بغداد وانتزاع السلطة من الخليفة كما فعل قبله البويهيّون والسلجوقيون فجمع قوات كبيرة وزحف على العراق سنة ٦١٤هـ/١٢١٦م ولكن عاصفة ثلجية هبّت عليه في الجبال واضطرّته على العودة • يضاف الى ذلك انه بالرغم من مقدرته العسكرية ونشاطه الكبير فان الفرصة لم تتهيأ له لتثبيت أقدامه وتنظيم دولته وخلق الوحدة اللازمة بين شعوبها • كما أنه لم يكن يدرك قوة جنكيزخان الحقيقية • وقد خانته قواه وانهارت معنويته بعد قليل من غزو المغول لبلاده عام ٦١٦هـ/١٢١٩م ففرّ الى احدى جزر بحر الخزر ومات هناك وحيداً مريضاً تاركاً بلاده لعدوّه يدمرها تدميرا • وقد عاد جنكيزخان الى بلاده بعد فتوحاته في ايران وذلك عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م ومات فيها بعد أربع سنوات حيث أعقبه ابنه وخليفته (أوغوتاي) على العرش المغولي في نفس السنة •

وقد كان بأمكان المسلمين ان ينتهزوا الفرصة فيجمعوا فلولهم ويوحدوا صفوفهم ويخلقوا جبهة موحدة ربما تستطيع ايقاف عدوهم ولكنهم ظلوا منشغلين بمنازعاتهم كالسابق • وكان جلال‌الدين منكوبرتي بن

علاءالدين محمد آخر سلاطين دولة خوارزم قد عاد من الهند سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م بعد فراره أمام جنكيزخان فجمع فلول جيش ابيه وطفق يعيد سيطرته على جنوب ايران وغربها ولكنه انصرف الى محاربة امراء المسلمين وخليفتهم ونهب بلادهم وتخريبها حتى اضطروا الى محاربته كما حاربوا المغول وأخذ يغزو دولة الخليفة في نفس السنة حتى تغلغل الى (بعقوبا) و (بادرايا) و (الراذان) و (باكسايا) و (تكريت) وهو ينهب ويقتل • وقد فتح (داقوقا) وأوقع السيف في أهلها وسبى حريمهم وهتك نساءهم وأحرق بلدهم وهدم سوره[٥] • وكان عسكره على ما وصفهم الذهبي (مجمّعة لا أخباز لهم بل يعيشون على النهب والأغارة)[٦] وظلت جيوشه تجوس خلال العراقين العربي والعجمي تخرّب البلاد وتنهب الاموال حتى فعلت في أهل (خلاط) في ٦٢٦هـ/١٢٢٨م ما لم يفعله التتار من القتل والاسترقاق والنهب[٧] • فاتفق ضده صاحبها الملك الأشرف بن الملك العادل مع صاحب الروم كيقباد بن كيخسرو والتقى الفريقان في رمضان فولى الخوارزمية منهزمين وهلك غالب عسكرهم وضعف بسبب ذلك جلال‌الدين وقويت عليه التتار واسترجع الأشرف خلاطاً وهي يباب[٨]• وفي ٦٢٨هـ/١٢٣٠م هاجمه المغول وهزموه شرّ هزيمة ففر الى الجبال حيث قتله أحد الأكراد •

أما الى غرب العراق وشماله فقد كانت الجزيرة وسورية ومصر مصدراً آخر لقوة المسلمين ولكنها كانت تعاني الفوضى والانقسام بعد وفاة موحدها الملك العادل اخي صلاح‌الدين الايوبي في ٦١٥هـ/١٢١٨م فانقسمت

---

(٥) يوسف بن قزاوغلي الشهير بسبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان وتاريخ الاعيان ، ج٨ ، قسم ٢ ص ٦٣٤ •

(٦) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٠١ •

(٧) الملك المؤيد ابو الفداء اسماعيل ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٥٣ •

(٨) ن• م•

البلاد بين أولاده الذين انشغلوا بالمنازعات والحروب في الوقت الذي أخذ فيه المغول يخربون دولة خوارزم يضاف الى ذلك ان دويلات صليبية كانت لا تزال قائمة في سورية وفلسطين وان حملات صليبية جديدة كانت تهدد مصر وسورية • ففي ٦٢٩هـ/١٢٣١م وصل فردريك الثاني امبراطور المانيا الى الشام واضطر الملك الكامل الأيوبي صاحب مصر الى مصالحته بتسليمه مدينة القدس وبيت لحم والناصرة وجميع المدن الواقعة بين يافا وعكا وفي ٦٤٧هـ/١٢٤٩ - ١٢٥٠م أغار الصليبيون بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر وهاجموا مدينة دمياط بعد ان هجرها أهلها • وخلال ذلك مات ملك مصر وخلفه ابنه الملك المعظم تورانشاه فانتهز الصليبيون الفرصة وتوغلوا في مصر فهزمهم أهلها هزيمة كبيرة وأسروا ملكهم • ولكن المماليك البحرية وكانوا حكام البلاد العسكريين آنذاك ثاروا على سلطانهم وقتلوه ونصبّوا أحدهم المسمّى معزالدين أيبك التركماني مكانه في ٦٤٨هـ/١٢٥٠م فلم تستقر الحال في عهده حتى قتل في ٦٥٠هـ/١٢٥٢م فتولى ابنه الصغير مكانه الى ان أزيح عن العرش من قبل قائد جيوشه سيف‌الدين قطز في ٦٥٧/١٢٥٨م •

— ٢ —

لم يكن سقوط بغداد بيد هولاكو عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م حدثاً مفاجئاً بل جزءً من حركة واسعة لغزو العالم الاسلامي بدأها جنكيزخان في ٦١٦هـ/ ١٢١٩م واستمرت بعد سقوط بغداد باستيلاءه على سورية واستعداده لفتح مصر في ٦٥٧هـ/١٢٥٩م • وقد كانت جميع الغزوات المغولية لهذه المنطقة بعد القضاء على الدولة الخوارزميّة في ٦٢٨هـ/١٢٣٠م تصدر من ايران وتشمل منطقة واسعة تمتدّ من آسيا الصغرى الى الجزيرة والعراق وتتسم غالبيتها ما عدا الحملة على آسيا الصغرى ، بطابع السرعة والعمل على اشاعة البلبلة والفوضى والرعب في نفوس السكان من أجل النهب والسلب

وجس النبض وكانت منذ بدايتها في عام ٦١٦هـ/١٢١٩م ترتبط ارتباطا شديدا بتقلبات الحكم في بلاد المغول نفسها فقد أدت عودة جنكيز خان الى منغوليا سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م وموته في ٦٢٤هـ/١٢٢٧م الى هدوء الاحوال في المنطقة ولكن تنصيب ابنه أوغوتاي خلفاً له أدّى الى ارسال جيش جديد للقضاء على بقيّة الدولة الخوارزمية واطلاق الكتائب المغولية تنشر الرعب والخراب في البلاد المجاورة لها .

وصلت الأخبار الى بغداد في ٦١٨هـ/١٢٢١م بتقدّم المغول من قاعدتهم مراغة في أذربيجان نحو اربيل فاتزعج الناس وأمر الخليفة الناصر لدين الله بالقنوت في الصلاة وحصّن بغداد وكتب الى صاحب الموصل وصاحب اربيل يأمرهما بالاجتماع بعساكره في (دقوقا) ولكنه لم يرسل غير ثمانمائة طواشي أي مملوك ووصل الخبر الى الموصل فخاف الناس وطلب صاحب أربيل النجدة من صاحب الموصل بدرالدين لؤلؤ فأرسل هذا جمعا صالحا من عسكره اجتمع مع عساكر أربيل وعساكر الخليفة ، وكان المقدّم على الجميع مظفرالدين كوكبوري صاحب اربيل وقد رأى قلّة العسكر فلم يقدم على المغول الذين رجعوا القهقرى ظنّاً منهم ان عسكر المسلمين يتبعهم[٩] . وقد أعقبت هذه الحادثة عشر سنوات من الهدوء انتهت بهزيمة جلال‌الدين منكوبرتي آخر سلاطين الخوارزميين في ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م وقتله سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م حيث انفتح طريق العراق وغربي آسيا أمام المغول فتقدموا نحو الغرب ووصلوا ماردين ونهبوها ثم ساروا الى نصيبين ونهبوا سوادها وقتلوا من ظفروا به هناك ونهبوا جبال سنجار ودخلوا الخابور وسارت منهم طائفة على طريق الموصل حتى وصلت قرية المؤنسة[١٠] فنهبوها وقتلوا من وجدوا من أهلها[١١] ومضت منهم طائفة الى

---

(٩) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٩ ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ ؛ العسجد المسبوك (مخطوطة مصورة) ج ٢ الورقة ١٣٢ .

(١٠) قرية على مرحلة من نصيبين للقاصد الى الموصل ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ص ٢٢٨ .

(١١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٨٥ .